د. غسان سلامة

المثقفون
قراءات متقاطعة

١ - هذه كشبكة الكلمات المتقاطعة، شبكة من القراءات المتقطعة.

٢ - لمن تشكّل الماركسية جزءاً من حِمْله الثقافي، تتواصل كلمتان: المثقف وغرامشي. أول كلام لأنطونيو غرامشي عن المثقفين اتهامه لهم بتسهيل استغلال الملاّك الكبير للفلاح. مدخل سلبي بشكل كافٍ لإثارة حذر كل واحد منا إزاء الآخر، وكأن ما يفرّقنا، حتى الآن، من السباقية والمنافسة والحسد لا يكفي.

وهم نوعان: «إن شرعية المثقفين قد تعدلت جذرياً بسبب نمو الرأسمالية: فهناك النوع التقليدي من المثقفين المولجين بتنظيم مجتمع قاعدته زراعية وحرفية. ونوع جديد أنبتته الصناعة: مدراء تقنيون واختصاصيون في العلوم التطبيقية».

هل يشكّل المثقفون طبقة مستقلة؟ هيغل كان قد ذهب في هذا المنحى وغرامشي يقول إن هيغل أخطأ باعتباره المثقفين أرستقراطية الدولة الحديثة، طبقة مستقلة بشكل مطلق عن المجتمع. أما غرامشي: «لا يشكّل المثقفون طبقة مستقلة، ذلك أن لكل جماعة محددة شريحتها من المثقفين أو هي تسعى لإيجاد هذه الشريحة». ارتباط المثقف الأساسي ليس إذن بالمثقف الآخر بل بانتماء مجتمعي أول. ولكن أنظر إليهم وقد تناسوا أصولهم (آه، الأصول!) وتجمعوا في أندية واتحادات ومؤتمرات، يتغنى فيها واحدهم بمقولات من يحسد ويتلهّى فيها الآخر بالرد على من هو ذاته الأخرى (alter ego). لا يخلو تفسير غرامشي لظاهرة «التجمّع التقاربي» هذه من التفاؤل. يقول: «إن مثقفي الطبقة التقدمية تاريخياً وفعلياً يمارسون، في عدد من الحالات قدرة على الاستقطاب كبيرة بحيث يتسنّى لهم استتباع مثقفي المجموعات الاجتماعية الأخرى، وبالنهاية، خلق نوع من التضامن بين المثقفين يقوم على مسالك نفسية (كبرياء، ادعاء...) كما على «روح تضامن مؤسسية». ويبدو الحذر في كلام غرامشي واضحاً في تحديده لانتماء المثقف إلى «مجموعة اجتماعية» لا إلى طبقة. وكأنه لا يريد أن يعطي لكلامه صفة الإطلاق، تلك الممارسة الشنيعة الرائجة السوق في مؤسسات الثقافة والسياسة الماركسية. فغرامشي يعرف تماماً ولو أن غيره يتناسى أن «فئات متخصصة تنشأ تاريخياً لممارسة المهام الثقافية. وهي فئات تنتمي إلى كل المجموعات الاجتماعية، خصوصاً المهمة منها، وتسير وفق بنى أوسع وأشد تعقيداً حين تكون من إنتاج المجموعة الاجتماعية المهيمنة». المثقف يبدو هنا، في أشد ملاحظات غرامشي ميكانيكية، نتاجاً للمجموعة الاجتماعية التي انبثق عنها.

لماذا تنتج المجموعات الاجتماعية مثقفين؟ «إن إحدى السمات الأساسية لأي مجموعة تطمح للهيمنة هي محاولتها إدماج المثقفين التقليديين في مشروعها والهيمنة عليهم إيديولوجياً. هاتان العمليتان (الإدماج والهيمنة) تتمان بسرعة وفعالية إن كانت هذه المجموعة قد قامت، خلال ذلك، بانتاج مثقفيها العضويين الخاصين بها».

وأخيراً التعبير المحوري: مثقف عضوي. من هو المثقف العضوي؟ هو المثقف غير التقليدي. «ذلك أن كل مجموعة اجتماعية أساسية تدخل التاريخ تجد تعبيراً عن تطور البنى الاقتصادية السابقة، فئات من المثقفين كانت قائمة قبلها وهي فئات تحاول أن تعبّر بذاتها عن ديمومة تاريخية مستمرة، في مواجهة التحولات الحاصلة في الأشكال الاجتماعية والسياسية أياً يكن حجمها وأياً يكن تعقيدها». المثقف التقليدي هو ذلك المرتبط بنظام إنتاجي بائد وهو، ثانياً، مثقف عضوي لطبقة فقدت هيمنتها. المثقف العضوي هو وليد «العقلانية العامة» إذ أنه «ينبغي الانطلاق من العقلانية العامة، وهي فلسفة الجماهير العفوية، في سبيل إعادة تركيبها ايديولوجياً». العقلانية العامة، فلسفة الناس، هي ممارسة بسيطة للعلاقة السببية. منها ينطلق المثقف

العضوي ومهمتـه، أي الوظيفـة التي تجعله مثقفاً بالتحديد، هو تعدّيه لهذه العلاقة: «إن فلسفة الممارسة هي بالضرورة في بدئها، مرفق سجالي، نقدي، فهي تعدٍ للعقلانية العامة وهي نقد لفلسفة المثقفين».

هل المثقف العضو حر؟ لا يطرح غرامشي المسألة بهذه البساطة، بهذا التبسيط السولجنتسيني. يقول: «إن شخصية الفيلسوف لا تتحقق في المختبر وإنما في علاقته الفاعلة بالوسط الثقافي الذي يسعى إلى تغييره والذي يؤثر عليه بدفعه المثقف إلى نوع من النقد الذاتي المستمر». هل من المغالاة القول بأن غياب هذا العنصر بالتحديد يكفي للحكم السلبي على التيارات الأساسية في الثقافة العربية المعاصرة؟ ثم هناك عنصر آخر، يمكن أن يشكّـل فعـلاً قاعـدة غرامشيـة لنقـد وتعريـة المثقف - الموظـف المعطى دوراً من قبـل المهيمنين (بورجوازية أم بروليتاريا) على وسائل الانتاج، وهو مثال شائع في «الدول التقدمية»، يقضي بتماثل الإنتاج الثقافي والإنتاج الصناعي. يقول: «إن ساحة النضال في سبيل خلق حضارة جديدة مجال غامض المعالم يتحكّم به اللامنتظر وغير المتوقّع. إن انتقال مصنع من سلطة رأسمالية إلى سلطة عمالية لا يفقده قدرته على الاستمرار في إنتاج الأشياء المادية نفسها. ولكن المصنع غير قادر على إنتاج الأعمال الشعرية والمسرحية والموسيقية. هذا مصنـع لا يمكن بنـاؤه بخطـة ولا تنفـع في إشادتـه الإحصائيات».

كيف يمكن الحكم على أعمال فنان؟ ما هي أهمية الإيديولوجيا وهل للجمالية دور؟ هنا أيضاً يمكننا أن نرى غرامشي تماماً عكس ما يمكن لمن جعلوه جزءاً من مؤسساتهم السياسية - الثقافية المهترئة أن يقولوا: «يمكن لكاتبين اثنين التعبير عن اللحظة الاجتماعية - التاريخية نفسها مع أن الأول كاتب قدير والثاني مجرد مخرطش». لا «الحزب» ولا «الحظ» يكفيان. يا لبؤس البطاقة الحزبية!

٣ - ١٩٨٠/٣/٢٧، وأنا أكتب، قرأت خبر وفاة **رولان بارت**. ذهبت إليه، في صباح أحد أيام تشرين الأول ١٩٧٣ قائلاً: أتيت أتعلّم عليكم المنهج الدلالي لدراسة اللغة والأدب. كان ذلك في مكتبة في ١٠، شارع تورنون، ذلك الشارع الواسع جداً بواجهة مدخل مجلس الشيوخ والذي يضيق ليصبح، في جانبه الآخر القريب، شارع السين، حيث تكثر صالات العرض. وهكذا كنت أذهب لسنتين، لسماع بارت آتياً من محطة لوكسمبورغ، محتسياً القهوة التقليدية في المقهى الصغير الذي يواجه مسرح الأوديون. بعـض المحـلات الأرستقراطيـة، ثم المدخل ذو الهندسة التقليدية (أعتقد أن ملاكاً يرفرف في زخرف المدخل المنحوت)، وأخيراً الدرج اللولبي الخشبي الذي تسمع عليه أقدام من يأتي. فنحاول أن نحرر هويته ونبتسم معاً عندما نخطىء وغالباً ما كنا نخطىء. كنا حوالى عشرين شخصاً أو أقل، وكانت الغرفة ضيقة للغاية. كان غالباً ما ينتظرنا وهو يقرأ صحيفة (لوموند)، وسيجارته متدلية بين شفتيه، على الطريقة السارترية تحديداً والباريسية عموماً. ثم انتقل من السيجارة إلى (السيجاريّو) الصغير البخس الثمن. صوته كان دائماً هادئاً للغاية. وعندما التقيته سنة ١٩٧٩ بالصدفة في مقهى (فلور)، كان يحتسي القهوة بهدوء ولكني خفت عليه لأن صوته كان ما زال هادئاً، لكن رجفةً ما كانت تجعله متذبذباً. قال لي (أعتقد أن ذلك في شباط من ١٩٨٠) وكان الطقس غائماً دون مطر وجرائد **لوموند** تباع بسرعة من الكشك المواجه للمقهى، قال إنه تعب للغاية وأنه سيوقف مفكّرته التي بدأها منذ أقل من سنة في مجلة (لونوفيل أوبسرفاتور). الأكثر باريسية من (لوموند) نفسها. أجبته، أن تلامذته القدامى الذين يعيشون في الخارج يتابعونه من خلال هذه المفكرة. وأعتقد أنني استعملت لذلك تعبيراً دينياً، فقلت «إنها رسالة رعوية مفتوحة». ابتسم، هز رأسه، سألني عن لبنان وأعاد: «إنني تعب».

سنة ٧٤/٧٣ كان يكتب (رولان بارت عن رولان بارت). كانت التجربة لا تخلو من النرجسية: ان يكتب كتاباً عن نفسه وكأنه إنسان آخر، دون المرور بالسيرة الذاتيـة. سنـة ٧٥/٧٤ كان يكتـب **le discours amoureux**، عن قول الحبيب. لكنه خلال السنة، لم يعد يعرف ما يقول. فأتى يوماً حاملاً آلة وأسطوانات. وقال: «لقد وجدت أن إسماعكم بعض lied من شومان وشوبروت والرومانطيقيين الألمان سوف يفهمكم ما أريد أن أقول أكثر مما أستطيع أن أعبّر عنه بالكلمات». وبقينـا نستمع إلى ذلك حتى نهاية السنة. كنا نأتي، كالأطفال، للاستماع مع أن معظمنا كان يملك آلة وكان يستطيع أن يشتري تلك الأسطوانات. إلا أن ما كان ينقصك وأنت بمفردك أو مع صديقتك هو ذلك الجو الكوسموبوليتي المفعم بالصداقة العفوية وبالبساطة في أحد أكثر زواريب باريس قرباً من «السنوبيسم».

عندما كنا نتكلّم كان يسمع، وعندما تعجبه إحدى أفكارنا وكانت كلها مقتبسة من قريب أو بعيد عنه وعن أرباب (الايكول براتيك)، من حوله، كان يخرج دفتراً صغيراً جداً من جيبه وكان يكتب عليه فقط كلمة مما قلنا. كانت الكلمات لديه مفاتيح للنص. ولكل كلمة وزن سحري.

في السنة الأولى، كان يعرض علينا فقرات كتابه عن

ذاته تباعاً. سألنا: وكيف سترتبها في كتاب؟ قال: كل فكرة سوف ألخصها بكلمة ثم سوف أرتب الكلمات بالتسلسل الأبجدي لأنه الأكثر عقلانية، فالتسلسل التاريخي سخيف والموضوعي أكاديمي. وهكذا كان فصدر **Roland Barthes par Roland Barthes**. وكنا نتساءل: ألا يشعر بالحياء؟ لا. كانت النرجسية جزءاً من شخصيته لكنها لم تكن أبداً عدوانية. لأنه كان يقربها، لأنه كان يعتبرها جزءاً من علاقته بأمه، ولأنه كان يعتقد أن من لا يقر بنرجسيته، خصوصاً بين المثقفين، أكذبهم.

الذين أحبوا بارت سوف يعودون أولاً إلى هذا الكتاب اللامنهجي والمفكك قطعاً. يبدأ بصورة عديدة كما تقتضي السلسلة التي صدر فيها. الصورة الأولى لأمه، سنة ١٩٣٢ في جنوب غرب فرنسا، ثم ثورته مع أمه، ثم صورته مع جدته. «وحدها صور طفولتي تثير اندهاشي». إلى جانب صورته مع أمه كتب: «طلب المحبة» ونرى نظرته نفسها خائفة ومنتبهة في آن، ويدين تلفان عنق أمه. الوالد غائب دوماً: مات في الحرب الأولى. ص ٢٦ - ٢٧ صورتان له وهو طفل «دون جنس»: مذكر ومؤنث معاً. ثم إقرار: الملل الدائم كجده لأبيه. مع الجسد علاقة تناقضية مستمرة: نحيل وهو طفل وولد، ومحاولة يائسة من الكهل المترهل للعودة إلى نحافة الطفل.

مقتطفات: «كتبت نصين. نص (واحد) رد فعلي، تدفع إليه المخاوف والدفاعات، ونص اثنين فاعل أصله اللذة.. ولكني وأنا أكتب النص (واحد) وأصححه يصبح بدوره فاعلاً... في خضم الاضطرابات السياسية يلجأ إلى البيانو والأكواريل، كشابة بورجوازية من القرن الماضي... بارت يحاول دائماً الحد من السياسة. ألا يعرف ما كتب برشت: «أريد مثلاً أن أعيش مع قدر قليل من السياسة. هذا يعني أني لا أريد أن أكون فاعلاً سياسياً ولكني أريد أيضاً أن أكون فاعلاً سياسياً ولا يحق لي فعلاً تحديد قدر مساهمتي السياسية»، أما بارت فإن مجاله اللغة... وهو صغير لم يكن يحب شارلي شابلن... إن للشذوذ مقدرة كبيرة على الامتاع، الشذوذ الجنسي والحشيش. القانون، العلم، الأخلاق لا تريد الإقرار بالواقع وهو أن الشذوذ مصدر سرور... الرأي السائد لا يحب لغة المثقفين... لقد حلمت، كل حياتي، أن أفيق باكراً، لكني لن أرى هذا. الأمر أبداً.... الرغبة لا تعادل قبول موضوعها. عندما كان أحد الغلمان ينظر إلى أبي نواس، كان أبو نواس يقرأ في نظرتيه لا الرغبة في المال وإنما الرغبة الصرفة وكان يهتز»...

كان رولان بارت فرنسياً بشكل عجيب، بشكل يصعب عليك تقريب كلماته واعتقادي أن كتبه، بالنظر إلى شدة ارتباطها باللغة التي كتبت تكاد لا تعرّب. أنا، على الأقل، لن أجرؤ يوماً على تعريبها. لكنه لم يكن فرنسياً إلا في لذته، لم تصبح «الفرنسية» صفة أو انتماء، هي فقط قبول واقع لغوي، وزمني (بمعنى حالة الطقس). يوم وفاة جورج بومبيدو كان مسروراً لأنه سمع باخ، موزار، برامزوشوبيرت. ذلك «أن الموسيقى الجميلة هي الجنائزية». أما هو فيرى ذاته فرنسياً... بالفواكه: «أنا فرنسي بالفواكه كما غيري كان فرنسياً بالنساء، أحب الإجاص والكرز والفرامبواز وأحب البرتقال قليلاً إنما لا أحب أبداً فواكه كالمانغا والقوياق والليتشيز.

عرب؟ موقفه من العرب؟ كمثل مواقفه السياسية كلها: غير سياسية. المدخل للعرب كما للحضارات الأخرى كلمات وأسماء. ذكرت أبا نواس سابقاً وكان يستهويه. هو أخبرني عن أحمد الطفاشي (توفي سنة ١٢٥٣) وهو صاحب «ملذات القلوب» الذي كتب عن قبلة غلام ما يلي: هو يدخل لسانه في فمكم ويديره باستمرار. بذلك (يقول بارت نقلاً عن الطفاشي المجهول) يعطي الغلام دلالات ثلاث: يظهر معرفته بالحب، ويحافظ على صورته الرجولية، ويأخذ دور المبادر. من بلاد العرب، يعرف (إذن يحب) المغرب أساساً وطنجة خصوصاً. من ذكرياته الأجمل، حسبما كان يقول، دخوله إلى مقهى محششين في طنجة حيث لم يأبه له أحد من الجلساء بل جاء إليه بائع الحشيش وباعه منه، كمثله من الحاضرين: نفس الحركات، نفس السعر. أحسّ بالتبني العفوي (برأيه أعلى علامات الصداقة).

سنة ١٩٧٦، أنستني الحرب الأهلية بارت. بعد الإعجاب أتى وقت الكراهية لماذا؟ لست أدري فعلاً غير أنه، بالأساس، بدا مناقضاً باهتماماته، بكلامه، بمسلكه للشعور بضرورة التعبئة المستمرة الذي انتابنا خلال الحرب وبسببها. رولان بارت، دون أن يسعى إلى ذلك بذاته معادٍ للعقبة وللتعبئة، وبالنهاية لكل كلام يريد أن يعطي عن ذاته شعوراً بالشمولية وبالتراص. كما هو كلام السياسة. رولان بارت ليس للأحزاب ولا للحروب ولكن ما أغناهُ بعيدها! على أي حال، انتخب في الكوليج دي فرانس وأتت مع الانتخاب الشهرة الرسمية بعد سنوات الهامش المرادة. ثلاث سنوات في الكوليج دي فرانس انتهت أمس بوفاته بعدما صدمته سيارة وهو خارج من تلك المؤسسة الرسمية جداً المطلّة على شارع المدارس، بين السوربون والنهر.

في ٧ كانون الثاني ١٩٧٧، كان موعد «الأمثولة الأولى»، وهي طقس اجتماعي واسع ينافس شهرة الدخول للأكاديمية الفرنسية. لم أستطع إلا التخلّي عن

انزعاجي وذهبت أشارك في حفلة التطويب. لم أصدّق عيني وفقدت أعصابي معاً: الصالة ملأى (لم أستطع رؤيتها فعلاً) والدرج المؤدي إليها وهو كبير وواسع يعج بالناس، والطابق الأرضي مليء بعشرات من الآملين بذهاب الشخص الذي أمامهم بحيث يقتربون متراً آخر من الدرج ومتراً من الباب ومتراً منه... أصبح رولان بارت نجماً. كم واحداً بينهم يهوى بارت وكم واحداً يرغب في حضور مناسبة اجتماعية سوف تتكلم عنها الصحف في الغد؟ لم أكن أنوي الوقوف ساعات. ذهبت واحتسيت عدة كؤوس من النبيذ الأبيض المثلج في مقهى الجوكي بمواجهة نوتردام. وكنت متأكداً أن بارت، مكاني، فعل مثلي.

في الكوليج دي فرانس، كان بارت في تلك الأثناء، يعرض مرة أخرى ثنائية الشخصية التي تجعله ينتج: «عليّ ولا شك أولاً التساؤل حول الأسباب التي جعلت الكوليج دي فرانس يقبلني. ذلك أن مساري جامعي ولكني لا أملك ما يؤهل عادة لهذا المسار». نسيت فيما سبق أن أذكر لكم جواب بارت على طلبي تعلّم المنهج الدلالي: «يا صديقي الشاب (كان عمري واضحاً رغم الشاربين)، لقد أتيت متأخراً للغاية. لم أعد أمارس المناهج وأكتب فقط النصوص المتقطعة. ألم تقرأ كتابي الأخير؟». ذهبت فوراً أشتري لذة النص. أعيد اليوم تصفحه وما زال سعره واضحاً على الغلاف: ١٠,٤٠ فرنكات بعد الحسم. وأقرأ تلك الفقرة التي كانت سوف تمنعني من سؤاله ما سألت: «إن أدخلت مسماراً في الخشب، فإن الخشب يقاوم بشكل مختلف حسب المكان الذي تتناوله فيه. الخشب ليس متساوي المقاومة. النص أيضاً ليس متساوياً: الفجوات والحدود فيه غير متوقعة. فكما أن الفيزياء الحديثة عليها أن تتأقلم مع الصفة غير المتساوية لبعض الأشياء، كذلك فإن التحليل البنيوي (الدلالي) عليه أن يتعرّف على مقاومات النص، على صورة شراييننه الصغرى».

كما مع برشت، غداً سيقوم بعضهم ويقول: بارت هو القائل كذا وكيت. هؤلاء أغبياء هؤلاء موظفو المؤسسات الثقافية. بارت عاش بين ١٢ تشرين الثاني ١٩١٥ و٢٦ آذار ١٩٨٠، ٦٥ سنة من البحث عن اللذة. وكان، فقط، أحياناً، لمزيد من لذته ولقليل من لذتنا، يكتب تلك اللذة.

٤ - في كتابه عن إيران، الصادر في نهاية ١٩٧٨، يتكلّم حازم صاغية باحتقار متسرّع عن **أحمد كسروي** (ويسميه كسرامي). آنذاك، حين كانت لحية آية الله الخميني تغطّي التيارات السياسية والقوميات كلها، بعد ما حدث في كردستان وبلوشستان وخوزستان وأذربيجان، من الصعب الاكتفاء باتهام الامبريالية، كالعادة، في عرقلة مسار ثورة مظفرة.

إن انفصال إيران عن الامبراطورية الإسلامية السنية، حادث ذو شأن تاريخي خطير، ولو أن التقليعة اليوم تقضي بتناسيه. لقد تكونت في بلاد فارس، بدايات دولة حديثة، شارك في بعض من مفاصلها الرئيسية، آيات الله أنفسهم. هذه الدولة كانت تواجه تعددية في السكان طبيعية، من غير الممكن رفع اصبع الاتهام المتسرع بوجه من يذكّر بها. فعلى الصعيد الديني، تواجدت أقليات سنية كبيرة إلى جانب الأكثرية الشيعية، تكونت خصوصاً من أكراد وعرب وتركمان وبلوش، دون ذكر الأقليات غير المسلمة، بهائيين وزرادشت ومسيحيين. وحتى الأكثرية الشيعية نفسها كانت، لغنى تراثها الديني، تذهب في أكثر من منحى، شيخية أو كريمخانية. أما على مستوى اللغة فإن أقل من نصف السكان كانوا يتكلمون الفارسية ولو أن هذه اللغة كانت الأوسع بمواجهة تعدد واسع جداً يبدأ بالعربية والكردية وينتهي بالمازاندرانية والأرمنية. إن الخلافات المستمرة بين المجموعات التقليدية، قبلية، دينية أم لغوية وبين إحداها والأكثرية الشيعية الفارسية كانت مستمرة ولا يمكن القول بتاتاً كما ذكر بعضهم، أنها من فعل الشاه المخلوع الذي اكتفى بالفعل بترداد ما قام به سابقوه، محاولاً اللعب المستمر على التناقضات ومعتمداً إجمالاً، فيما يخصه، على بعض الأقليات لمحاربة الأكثرية.

وبالرغم من ذلك، يبدو من الصعب القول أن موضوعة الاندماج القومي كانت تشغل بالفعل ذهن المثقفين الإيرانيين، خارج أحمد كسروي تحديداً. ولد كسروي سنة ١٨٩٠، في ضواحي تبريز من عائلة أذرية، وكان جده قد بنى مسجد القرية وكانت عائلته إجمالاً تمونها بالملّات. في ذلك الوقت كانت التيارات الشعية الرئيسية تتناحر في تبريز ووصلت إلى حد الصدام المسلح. وبالرغم من أن هذه التيارات كانت جميعها مسلمة وشيعية فإنها أدت بالفعل إلى قيام «ثلاثة متحدات منفصلة، تصلّي، تدرس وتعيش بشكل متميز. وكان المنتمي إلى إحداها لا يتزوج إلا من داخل متحده. أما أبي فقد حاول إجمالاً أن يقيم صداقات مع رجال من المجموعتين الاخريين.. وكنت أسمعه دائماً يقول على فراش الموت: «على أحمد أن يتابع دراسته لأنه يجب أن يكون هناك عالم دين باستمرار في عائلتنا. إلا أنه عليه أن يكسب قوته بعرق جبينه لا أن يعيش على حساب الآخرين كرجال الدين الآخرين».

الثورة الدستورية في إيران انبلجت سنة ١٩٠٥ وأحمد كسروي في إحدى مدارس تبريز الدينية. وهو كتب في مذكراته أنه أعجب باهتمام المصلحين بتقدم

الشعب وتنوير المواطنين إلا أنه أبقى عواطفه سرية خوفاً من ردة فعل عنيفة من عائلته المتدينة. وبدأت الحرب الأهلية فكتب كسروي: «إن أحد العناصر المؤسفة في التاريخ الإيراني هو هذا الانقسام بين الحيدريين والنعمتيين. نحن لا نعرف بدقة كيف انطلقت هاتان المجموعتان المتنافستان لكننا نعلم أنها، منذ القرن السادس عشر وحتى خلال الثورة الدستورية قسمتا معظم المدن إلى أحياء متصارعة». إلا أنه ما لبث أن تخرّج وعاد إلى قريته حيث اضطر للاصطدام بمواطنيه الذين أزعجتهم أفكاره الحرة وزيه البسيط، وتصرفه البعيد عن تصرف رجل الدين التقليدي.

إذاك انصرف كسروي عن إقامة جامع قريته إلى تعليم اللغة العربية في المدارس الحديثة. في إحداها، المدرسة الأميركية في تبريز، سوف يصطدم الأستاذ الشاب بنوع جديد من الآنات هو ارتباط التيارات التقليدية المتصارعة بالصراعات الدولية. إذ أيدت الشيعة إجمالاً ألمانيا ودول المحور بينما فضّل المسيحيون روسيا والحلفاء. أما الفئة الثالثة وتألفت من العلي الهيين (أولئك الذين، بين الشيعة، يضعون علياً على قدم المساواة مع محمد) فقد رفضت اتخاذ موقف من الصراع، معتبرة إياه، صراعاً بين أجانب.

من المدرسة الدينية إلى المدرسة الإرسالية ومنها إلى المدرسة الوطنية الحديثة حيث تابع كسروي عمله كأستاذ للغة العربية. إلا أن أحداث الحرب العالمية الأولى (تهديد روسي فاحتلال عثماني فهزيمة عثمانية) أرغمته على اتخاذ موقف، خصوصاً بعد أن برز الشيخ محمد خيابانى، أحد قادة الثورة الدستورية، زعيماً على تبريز. كان كسروي، في الإجمال يؤيده، ويرى فيه مثال رجل الدين المنفتح على الحداثة وعلى الديمقراطية. إلا أن كسروي عارضه في اعتماده على التيار الشيخي شعبياً حتى ولو كانت أهدافه العليا وطنية وديمقراطية. وأخذ عليه تساهله مع أولئك المنتمين إلى جماعته التقليدية والذين كانوا حتى الأمس القريب من المتعاونين مع العثمانيين. إلا أنه كان، بسبب مواقفه، في موقع أقلّي للغاية ومهدد فهرب إلى طهران.

التحق كسروي في العاصمة بوزارة العدل لعشر سنوات (١٩٢٠ - ١٩٣٠). وكموظف في تلك الوزارة تنقل كثيراً في أرجاء إيران مكتشفاً يوماً بعد يوم لا التعددية السكانية الكبيرة فحسب بل أساساً صلابة التيارات الانفعالية وعنف الصدامات بين المجموعات التقليدية. أما في خوزستان، المقاطعة العربية - الإيرانية، فقد وجد كسروي نفسه في موقع صعب للغاية. ذلك أنه كان من جهة يؤيد الهجوم الإيراني الواسع الذي قاده رضا خان ضد التحالف الانفصالي العربي بقيادة الشيخ خزعل، وكان من جهة أخرى يعارض استفادة ضباط الجيش المنتصر من الحرب لضرب المؤسسات المدنية وتثبيت الحكم العسكري: وحدوي ديمقراطي وخصوصاً موظف نظيف لدرجة ازعاج كل زملائه المنتفعين ومن ثم الشاه نفسه. ذلك أن رضا خان تفوق على زملائه وعيّن نفسه شاهاً ثم حاول استرجاع كل الأراضي التي كانت ملكاً للأسرة القجرية البائدة على حساب الفلاحين. إلا أن كسروي أيّد موقف الفلاحين بحزم بوجه القضاة الذين رضخوا لضغط السلطات... واضطر للاستقالة.

سنة ١٩٣٠ ترك الوظيفة وسنة ١٩٦٤ اغتيل وخلال هذا العقد والنصف كان هاجسه الأساسي تحويل إيران من مجتمع مفكك إلى مجتمع عصري مندمج. كتب أكثر من خمسين كتاباً ومنشوراً. فكرة الانطلاق: تقسيم العمل أدى إلى تفكيك المجتمع. هل الدين قادر على إعادة توحيده: «إن استعمالي لكلمة دين يختلف عن استعمال الآخرين لها. إنني أرى فيها ايديولوجياً تعلّم الناس معنى الحياة الحقيقي وتعطيهم سلسلة من القواعد الخلقية». ذلك أن كسروي يعتقد أن الايديولوجيا وحدها، لا المؤسسات ولا القوانين ولا السلطات، يمكن لها أن تؤمن وحدة الشعب. ويشير كسروي في هذا المجال إلى أن الإسلام الذي تفرق شيعاً فقد، في الإجمال، قدرته الدمجية.

أما إيران فقد رأى فيها كسروي أساساً التخلف الحاد. ولتفسير هذا التخلف رفض كسروي كل النظريات السطحية الرائجة: من اتهام العرب والساميين بأنهم بغزوهم لإيران قضوا على تطورها الحضاري، إلى رد التخلف إلى وجود سلطات قمعية مشيراً إلى أن المرحلة الدستورية بين ١٩٠٥ و١٩٢٦ لم تكن أفضل في محاربة التخلف من الحكم المطلق كما حارب الاعتقاد الشعبي (في إيران أيضاً) بأن الغرب هو وراء كل مشاكل البلد. ولقد ذهب في هذا المجال إلى حد القول إن أباه قد أخطأ في قوله إن الأجانب هم أصل الخلافات الفئوية الداخلية في إيران.

أما التحليل الخاص به فقد كان واضحاً: إن إيران متخلفة لأنها منقسمة إلى مجموعات متناحرة أما الامبريالية فإنها لم تخلق هذا التناحر بل اكتفت باستعماله: «نحن نعلم جميعاً أن إيران متخلفة. واليوم معظم الإيرانيين الذين لديهم حبة من الذكاء يحزنهم هذا الوضع. وحزنهم في محله لأن وطننا كان في يوم من الأيام امبراطورية كبيرة وهو اليوم دولة ضعيفة وصغيرة. ما هو

سبب هذا التقهقر؟ في مطلع هذا القرن، كان المصلحون يجيبون بقولهم إن عراقيل التقدم الأساسية هي في الدكتاتورية المطلقة التي وجدت مصلحتها في إبقاء المواطنين جهلة. لكننا، بعد عشرين سنة من الحكم الدستوري، لم نعد نستطيع، ضميرياً، أن نجيب بهذا الشكل. ذلك لأننا نعلم أن العلة الأساسية ليست في الحاكم بل في المحكوم. نعم إن السبب الأساسي للتخلف في إيران، وعلى الأرجح في معظم دول العالم، هو انعدام الوحدة بين الجماهير. إن أسوأ كارثة قد تقع على أمة ما، هو تفككك وحدتها. إن شعباً يتقاسم أرضاً واحدة يجب ألا ينقسم إلى مجموعات متنافسة.

أما قواعد التفكك فهي برأيه أربع: الطائفية واللغة والانتماء القبلي والانقسام الطبقي. «إنني أستطيع تعداد ١٤ شيعة دينية مختلفة، لكل واحدة منها أهدافها ومصالحها.. وهناك على الأقل ٨ مجموعات لغوية متمايزة، كل واحدة منها تنافس الأخرى.. وهناك انقسامات فئوية أخرى: هذه القواعد (الطائفية) أخطرها: «١٤ طائفة دينية في إيران. هذا يعني ١٤ دولة، ١٤ هدفاً، ١٤ مصلحة... هذا يعني أن الشعب منقسم إلى مجموعات منفصلة، لكل قادتها وأتباعهم، وكلها ترى في الحكومة قوة معادية، كلها تأنف عن دفع الضرائب وكلها تنظر إلى نفسها بمعزل عن باقي الأمة. إنها تعيش على هذه الأرض، وتستفيد منها ولكنها ترفض أن تتصرف كمواطن مسؤول». وقد نال الشيعة فيضاً واسعاً من نقده.

أما القبائل فلم يكن مأخذه عليها كونها ما زالت بدوية «بل لأنها ما زالت تعتمد بناها الاجتماعية التقليدية. وتنظر كل قبيلة إلى ذاتها وكأنها غير ما تبقى من الأمة، رافضة الاعتراف بسلطة الحكومة المركزية، متجاهلة الوزارات والإدارة ومطيعة فقط قادتها الوراثيين. ولا أستطيع إلا النظر إليها كأعداء للشعب».

الحل هو في الوطنية كبديل للانتماءات التقليدية الأخرى.

لذلك على الدولة القيام باصلاحات جذرية تساوي بين المجموعات المختلفة، وباصلاحات ثقافية تقرب بينها وتصهرها. ولا شك أن الآلة الأساسية للتحرك يجب أن تكون شعبية. ويبدي كسروي آراء نقدية قاسية إزاء النخبة ويتهمها بالانتهازية: «إن نخبة صغيرة تهيمن على السلطة في بلدنا منذ ستين عاماً وأعضاؤها وحدهم يصلون للمراتب العليا في الدولة... إنها نخبة قوية ومتراصة.. وأعضاؤها كانوا في السلطة أيام الاستبداد القجرية، وخلال الثورة الدستورية وتحت حكم رضا شاه وفي أيامنا هذه. إن لم نقطع جذورهم قطعاً فسوف يبقون في السلطة».

أحمد كسروي كان شجاعاً ولكنه فشل. لم يتبعه إلا آلاف قليلة، من الطلاب الجامعيين في معظمهم ثم قامت مجموعة فدائيي إسلام سنة ١٩٤٦ باغتياله دون أن يثير ردة فعل قوية. والتقت ضده السلطة البهلوية مع كبار رجال الدين فاتهمه رئيس المجلس السيد محمد صادق الطباطبائي بأنه معاد للإسلام بينما كانت المحكمة العسكرية تبرىء الذين اغتالوه. ورفض رجال الدين دفن جثته لفترة.

لا شك أن كسروي كان يمثّل، في بعض من مواقفه، تياراً توحيدياً حاداً لا يتراجع أمام تبسيط شديد للأمور. كما لا شك أنه افتقر إلى مقومات التيار السياسي الشعبي وإلى تكتيك مناسب. فأثار ضده الأكثرية الفارسية الشيعية المسيطرة كما أثار مثقفي الأقليات بدعوته إلى الاتحاد الانصهاري دون احترام شديد للثقافات المتعددة. ويبدو أيضاً أنه أخطأ في قراءته لعدد من المراحل التاريخية كما لبعض مظاهر إيران في عصره. إلا أنه وضع الأصبع على جرح تنزف منه إيران بالأمس كما اليوم... وهو جرح يعرفه العرب جيداً ومنه، هم أيضاً متألمون.

٥ – برأيي أن الجانب الأهم في برتولت برشت تغيّبه الثقافة المأسسة تلك التي يصير فيها المثقف موظفاً متوجساً باستمرار غضب الرقيب الأعلى. هي اللذة التي تدفعه للقول: ليدخل المتفرج إلى مسرحي وسيجارة في فمه. هي اللذة التي تجعله يمارس الجنس ويترك الأولاد للنساء اللواتي تعرف عليهن بحرية أول نضوجه، مرثية لفرانك فديكايند، يقول فيها: «السبت، ونحن نسير معاً إلى جانب نهر اللاك والليل ملؤه نجوم، غنينا بالصدفة على الغيتار بعضاً من أغنياته... وبعدما تقدم الليل كثيراً كنا ما زلنا على السد وأحذيتنا تلامس الماء، نغني إحدى أغنياته التي يقول فيها إن أحسن ما يمكن القيام به هو مرور الأيام ورجلاك إلى الحائط. الأحد، عرفنا أن فديكايند مات السبت».

بعد ذلك سوف يكتب باستمرار بينما يتعمّد الذين يريدون أن يجعلوا منه قسراً «مثقف الطبقة العاملة» فحسب، عدم سماعه: إن هدف الفن هو الامتاع، الامتاع، الامتاع. إليكم مثلاً تحديد المسرح: «المسرح هو إعادة إنتاج صور حية لأحداث، جرت فعلاً أو خيالية، وقعت بين البشر، وهدفها الامتاع... إن الامتاع هو أنبل وظيفة وجدناها للمسرح. إن وظيفة المسرح، منذ البداية كالفنون الأخرى، هي الترفيه عن البشر. إن هذه الوظيفة تعطيه بالفعل كرامة خاصة. إن السبب الوحيد لوجوده هو المتعة التي ينتجها. إن هذه المتعة لا

غنـــى عنهـــا فيـــه ». لمـــاذا موظفو المؤسسات السياسية - الثقافية يخبئون هذه النصوص. فقط لأن المتعة هي عكس الكذب المتخفي وراء الكلام المنطقي جداً. لأن المتعة، إن اندست في سياستهم، تلغيها.

٦ - الرقابة. في إحدى كتاباته اللذيذة، يقول فرويد ان لا وعي الإنسان شبيه بالصحف الصادرة في أوروبا الغربية بعد دخولها إلى روسيا القيصرية: ترى فيها خصوصاً الفجوات التي أحدثتها مقصات الرقيب القيصري. لا أجد مدخلاً أفضل من هذا التشبيه للكلام عن الرقابة. وذلك لأن وجهها السياسي يكاد لا يفترق عن وجهها النفسي. يقول فرويد « هل صادف أن رأيت صحيفة أجنبية راقبها الروس عند مرورها بالحدود؟ كلمات، جمل، مقاطع حذفت منها بحيث يصبح الكل غير مفهوم. في بعض أصناف الجنون، نشهد نوعاً من « الرقابة الروسية » إذ نرى مقاطع غير مفهومة لأن مقاطع أخرى قد حذفت ».

٧ - المثقف والفاشية. كيف يمكن للفاشية أن تخلق مثقفين كيف يمكن للمثقف أن يكون فاشياً؟ ماريا أنطونيتا ما شيوكي كتبت عن إيطاليا موسوليني: « لقد كانت الفاشية غير قادرة على إنتاج طبقة حاكمة سياسية وثقافية تؤمن لها الهيمنة الإيديولوجية ». لقد كان المثقفون الطليان ازاء الفاشيين مثاليين في اندفاعاتهم السرية إلى جانبها وفي ابتعادها عنها قبل سقوطها. من هنا الفارق بين الفاشية الإيطالية التي انضم إليها مثقفون بارزون فوراً والنازية حيث لم يستطع هتلر استقطاب مثقفين تتنازعهم الليبرالية والاشتراكية. ولكن، عندما سقط موسوليني سنة ١٩٤٣ لم يجد مثقفاً واحداً يقرأ أنه كان معه.

عندمـا يسقـط النظام، يتكالـب عليـه النـاس والمثقفون، هذه المرة في الطليعة. المثقف العربي اليوم متواطىء طالما لم يتخذ موقفاً واضحاً ناصعاً من المسائل الأساسية حالياً: القمع، التبعية، وإعادة توزيع الريع النفطي.

٨ - **سوفوكل**. خلال أقل من خمسين عاماً نشأت المأساة الإغريقية ثم انطفأت. ما زالت الظاهرة تثير. مثل العلم والتاريخ والفلسفة، كانت المأساة اليونانية تريد أن تفسّر مسار العالم. وهي بالفعل مرحلة انتقالية بالغة الأهمية بين التفسير الديني والتفسير التاريخي. سوفوكل كان مؤمناً، ما زال مؤمناً سنة ٤٢٠ ق.م. عندما كتب أوديب ملكا. لم نعرف الملحمة، لم نعرف المأساة، لم نعرف التاريخ. يا لفقرنا المدقع!

٩ - أكتب في أكثر من مجلة وأتوق إلى واحدة غابت: « آفاق » الحرة، الجريئة الهادية، غير المرتبطة، وبسبب من كل ذلك: الراحلة. كتابات آفاق تذكرني بجملة لرولان بارت (مرة أخرى هو): النص هو (يجب أن يكون) ذلك الشخص المتحرر الذي يدير قفاه للسياسة. ذكريات الكتابة في آفاق، لذيذة مثل ذكريات الطفولة كنت وكان غيري، في عقلة من الرقيب، وكأنه لم يكن موجوداً، نجرّب، نلعب ونضحك من الذي يأخذ ما نقوله محمل الجد. الحرب التي مرّ (يمرّ) بها لبنان مملّة لأن كل الأطراف الفاعلة فيها تتصرف وهي تفكّر بالرقيب، بمقصه أحياناً وبمحفظته معظم الأحيان.

١٠ - من هم مثقفو الثورة العرابية. يقول أحمد عرابي عن نفسه: « إنني ابن فلاح مصري وقد اجتهدت قدر طاقتي أن أحقق الإصلاح لوطني الذي أنا من أبنائه ومحبيه ». هل كان لابن الفلاح الذي تحول قائد ثورة فيلسوفه؟ لا يبدو.

١١ - عودة المثقف من غربته الجغرافية، عودة المثقف إلى غربته الفعلية. هذا من « موسم الهجرة إلى الشمال »: « عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد. كنت خلالها أتعلّم في أوروبا. تعلمت الكثير وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى. المهم أنني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل. سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائماً بينهم. فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس ذاك دفء الحياة في العشيرة »... الغربـة، الغربـة: « مصطفى سعيـد يـا حضرات المحلفين إنسان نبيل استوعب عقله حضارة الغرب، لكنها حطمت قلبه ». الغربة... الغربة: « بعد ثلاثة أعوام، قال لي ناظر المدرسة، وكان انكليزياً: هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر، إذهب إلى مصر أو لبنان أو انكلترا »... أدرت المفتاح في الباب فانفتح دون مشقة. استقبلتني رطوبة في الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمـة.. رائحـة الطوب والخشب والنـد الحريـق والصندل... والكتب. يا إلهي. الحيطان الأربعة من الأرض حتى السقف. رفوف، رفوف، كتب كتب كتب. أشعلت سيجارة وملأت رئتي بالرائحة الغربية... كتبٌ سمعت بها وكتب لم أسمع بها كتب قديمة مهلهلة وكتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها، كتب في صناديق، كتب على الكراسي... لا يوجد كتاب عربي واحد ».

الغرب/ الكتب، الغرب/ النساء: « كانت تغني لي

أغاني ماري لويد ونحن عراة. كنت أقضي معها أمسيات الخميس في غرفتها في كامدن تاون وأحياناً تقضي الليل معي في شقتي. كانت تلحس وجهي بلسانها وتقول لي: لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الاستوائية ». الغرب، الغريب، الغروب، الغربة. الغربة في روما وأنت تخرج من مطعم شعبي، الغربة في باريس وأنت تتساءل: الجوكي، الفلور، أم لا باليت؟ الغربة في نيويورك وأنت خارج من غوغنهايم ميوزيوم، الغربة في برلين بعد اغتيال

عدة قنانٍ من نبيذ الراين الأبيض، الغربة وأنت تدوس العشب الرطب جداً في مكان ما بين مدينة غان البلجيكية ونهر الليس بعدما شبعت عيناك من التعبيريين المصطفة بيوتهم إلى ضفاف النهر المتثاقل... تعود... الغربة في بيروت الغربة إزاء العربية والقرف من كل الحروب الأهلية على الاطلاق. بالأمس كتب لي صديق: «كل المنفيين يحلمون بالعودة وكل المقيمين بالمنفى». صدق الصديق الحميم.